....

وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في «العقيدة الواسطية»؛ فلتُراجَع هناك.

*** مراتب القدر:**

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم، وذٰلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقًا أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه. وأدلة ذٰلك في الكتاب كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر؛ فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى. ولاحظ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق؛ فهٰذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل؛ فكل هٰذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم. ففي هٰذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛ ففي الآية أيضًا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

....

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذٰلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم...﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات والأرض إلا الله خالقُه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهٰذا العموم لا مُخَصِّص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ ـ إرادة جازمة.

٢ ـ قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهٰذا قيل لأعرابي: بِمَ عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ ـ خلق، وهٰذا يتعلق بالله.

٢ ـ مباشرة، وهٰذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ

....

تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

عِلْمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُهُ وخَلْقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

وهناك تقديرات أخرى نسبية: منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. ومنها: التقدير الحَوْلي، وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]؛ فهو كل يوم يغني فقيرًا، ويفقر غنيًا، ويوجد معدومًا، ويعدم موجودًا، ويبسط الرزق ويَقدِرُهُ، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونًا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرارًا من قدر الله؟ فأجاب

....

عمر: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»(١).

يعني: أن مُضِيَّنا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له شعبتان إحداهما خِصبة والأخرى جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله.

وقال أيضًا: أرأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة؛ أكنت معجِّزه؟ قال: نعم. قال: فَسِرْ إذن. ومعنى معجزه: ناسبًا إياه إلى العجز. فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصي معذورًا بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ فهم قالوا هٰذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهٰذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتى مع إرسال

---

(١) أخرجه: البخاري في (الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ٤/ ٤١)، ومسلم في (السلام، باب الطاعون والطيرة، ٤/ ١٧٤٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنه.

....

الرسل، وهٰذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس. وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هٰذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لٰكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب. وكذٰلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذٰلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذٰلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهٰذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: **«ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار». قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»**[1]؛ فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: **«اعملوا...»**، وهٰذا فعل أمر، **«فكل ميسر لما خلق له»**.

وللإِيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

(١) أخرجه: البخاري في (التفسير، باب **﴿فأما من أعطى واتقى﴾**، ٣/ ٣٢٤)، ومسلم في (القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠)؛ عن علي رضي الله عنه.

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ لأحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللّهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللّهُ مِنْهُ، حتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ»، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ....

١ ـ أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢ ـ أنه يوجب صدق الاعتماد على الله ـ عز وجل ـ؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣ ـ أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤ ـ منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي منَّ عليه وقدَّره له، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]؛ أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥ ـ عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦ ـ أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله ـ عز وجل ـ، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطةً بأسبابها.

* * *

قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»: الصيغة هنا قسم، جوابه: جملة **«لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله؛ ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»**: وابن عمر ـ رضي الله عنه وعن أبيه ـ ذكر حكمهم

«الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ ....

بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابًا على ما نقل إليه من أن أناسًا من البصرة يقولون: إن الله ـ عز وجل ـ لم يقدر فعل العبد وإن الأمر أُنف، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه؛ فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: «**ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**»، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هٰذه الستة؛ فأنت كافر بالجميع لأن الإيمان كلٌّ لا يتجزأ؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنيًا على هٰذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان؛ سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئًا واحدًا من هٰذه الأركان الستة؛ صار كافرًا، وإذا كان كافرًا؛ فإن الله لا يقبل منه.

قوله: «أن تؤمن بالله»: والإيمان بالله ـ عز وجل ـ يتضمن أربعة أمور:

١ ـ الإيمان بوجوده. ٢ ـ وبربوبيته. ٣ ـ وبألوهيته. ٤ ـ وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل

وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ....

شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصًا بها؛ فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «وملائكته»: والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١ ـ الإيمان بوجودهم. ٢ ـ الإيمان باسم من عَلِمْنا اسمه منهم. ٣ ـ الإيمان بأفعالهم. ٤ ـ الإيمان بصفاتهم.

فمِمّن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خُلِقَ عليها له ستمائة جناح، قد سد الأفق؛ كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدًا؛ فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحيانًا بصورة بشر؛ فأتى مرة بصورة دِحيةَ الكلبي، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب(١).

قوله: «وكتبه»: أي: الكتب التي أنزلها على رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

١ ـ الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢ ـ تصديق أخبارها.

٣ ـ التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا؛ فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن. وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

---

(١) أخرجه: مسلم في (الإيمان، باب بيان الإيمان، ١/٣٦)؛ عن ابن عمر، عن أبيه رضي الله عنهما.

وَرُسُلِهِ ....

٤ ـ الإيمان بما علمناه مُعيَّنًا منها؛ مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥ ـ الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال عن يحيى كذلك[1].

* **تنبيه**: الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان؛ فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

قوله: «ورسله»: هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق لِيُبلِّغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١ ـ أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢ ـ أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام؛ ما لم تنسخ.

٣ ـ أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه؛ فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل لكل أمة رسولاً تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون:

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًا**﴾ [مريم: ١٢].

وَالْيَوْمِ الآخِرِ ....

يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]؛ فلا بد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١١٩] يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول؛ فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: إن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه»: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١)، وكما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

قوله: «واليوم الآخر»: أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هٰذا في «العقيدة الواسطية»، وهو كتاب مختصر؛ لٰكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلى هٰذا؛ فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة

---

(١) أخرجه: مسلم في (الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، ٤/٢١٩٧)؛ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)] . رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

عراة غُرْلاً بُهْمًا من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم؛ كل هٰذا من الإيمان باليوم الآخر. ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»: هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله ـ عز وجل ـ للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله ـ عز وجل ـ قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم؛ فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم لله ـ سبحانه وتعالى ـ مكتوبًا؛ لأن الذي كُتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله ـ عز وجل ـ، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهٰذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذٰلك لم يُطلِع الله عليه أحدًا؛ لا مَلَكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً؛ إلا ما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا؛ فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم؛ فإن هٰذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهٰذا الذي عصى الله ـ عز وجل ـ وقال: هٰذا مُقدّر

(١) أخرجه: مسلم (في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، ١/ ٣٦).

....

عليّ: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تُقدّر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لايطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «خيره وشره»: الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه. ومعلوم أن المقدورات خير وشر؛ فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغِنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهٰكذا.

وإذا كان القدر من الله؛ فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله؟

فالجواب: أن الشر لا ينسب إلى الله، قال النبي ﷺ: **«والشر ليس إليك»**[1]؛ فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديرًا ولا حكمًا، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله لهٰذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ تجد أن هٰذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجى به من العاقبة الحميدة، وهي الرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كَيّ تكويه بالنار؛ فالكي شر، لكن

(١) أخرجه: مسلم برقم (٧٧١).

....

الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرًا محضًا، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أَخْذ عزيز مقتدر؛ صار ذٰلك شرًا بالنسبة له، وقد يكون خيرًا له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به؛ فيكون خيرًا، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذٰلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تَكْسِرُ من حدة نفسه؛ فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله. وكم من إنسان أذنب ذنبًا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيرًا منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحَدَّ من عليائها؛ فهٰذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فَخُلِّفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم؛ حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم ـ صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه ـ، ومن شدة ما في نفسه تَنَكَّرت نفسه عليه، فبعد هٰذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدًا، وصارت حالهم أيضًا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعيانهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ

....

ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهٰذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه، وهٰذا شيء عظيم.

وسواء كان ذٰلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولٰكن هاهنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه؛ فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «**الخير بيديك، والشر ليس إليك**»[1]، ولم يقل: والشر بيديك؛ فلا ينسب الشر إلى الله أبدًا، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله لا يريد بقضاء الشر شرًّا، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهٰذا في المقضي، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شرًّا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شرًّا محضًا، حتى المقضي وإن كان شرًّا ليس شرًّا محضًا، بل هو شر من وجه خيرٌ من وجه، أو شر في محل خيرٌ في محل آخر.

ولنضرب لذٰلك مثلاً: الجَدْب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى

---

(١) أخرجه: مسلم في (صلاة المسافرين، ٧٧١).

....

النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، والرجوع إلى الله - عز وجل - من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرًا كثيرًا؛ فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله - عز وجل - واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر؛ رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالّون؛ فهذا الشر صار خيرًا باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضًا خير في غير السارق؛ فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضًا حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده؛ امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من النار

لكنه أجيب في الرد عليه ردًا مفحمًا؛ فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عاري ... جهل الفتى وهو من ثوب التقى عاري

يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار

حماية النفس أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

* * *

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ قَالَ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، ......

● **قوله** في حديث عبادة «**أنه قال لابنه: يا بني!**... إلخ: أفاد حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال: «**يا بني!**»، وفي هٰذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: «لن تجد طعم الإيمان»: هٰذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعام آخر أزالها، لٰكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله ـ عز وجل ـ، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة؛ فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهٰذه الحلاوة وهٰذا الطعم.

قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»: قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هٰذا تحصيل حاصل؛ لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلا بد أن نعرف معنى هٰذه العبارة؛ فتحمل هٰذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنى «**ما أصابك**»؛ أي: ما قدر الله أن يصيبك، فَعَبَّر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكون مخطئًا لك، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ **فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل**

وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ....

كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئًا، وأيًا كان؛ فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلا بد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبًا للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هٰذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لا بد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدًا.

مثال ذٰلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فَدَبَّ بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات؛ فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لا بد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هٰذا المعنى في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

فأنت إذا علمت هٰذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهٰذا كثيرًا ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هٰذه المصيبة؛ فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله ـ عز وجل ـ مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: «وما أخطأك لم يكن ليصيبك»: نقول فيه مثل الأول؛ يعني: ما قَدّر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحدًا سمع بموسم تجارة في بلد

سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللّهُ القَلَمَ، ....

ما وسافر بأمواله لهٰذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات؛ نقول له: ما أخطأك من هٰذا الربح الذي كنت تُعدّ له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك؛ لأن الأمر لا بد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جَرّب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هٰذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**». القلم بالرفع، وروي بالنصب. فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أولَ ما خلقَ الله هو القلم، لٰكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى. وأما على رواية النصب؛ فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعني: خَلَقَه ثم أمره أن يكتب، وعلى هٰذا المعنى لا إشكال فيه، لٰكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لٰكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله ـ عز وجل ـ خلق أشياء قبل هٰذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ لم يزل ولا يزال خالقًا، وعلى هٰذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلمُ يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هٰذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات؛ كالسماوات والأرض. . . فهي **أوّليّة نِسبيّة، وقد قال ابن القيم في نونيّته:**

فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ ....

والناسُ مختلفون في القلم الذي كُتِبَ القضاءُ به من الديّان
هل كان قبلَ العرش أو هو بعدَه قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

قوله: «فقال له: اكتب»: القائل هو الله ـ عز وجل ـ يخاطب القلم، والقلم جماد، لٰكن كل جماد أمام الله مُدرِك وعاقل ومريد، والدليل على هٰذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهًا؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١]؛ فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «قال: ربي وماذا أكتب؟»: «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و«**أكتب**»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هٰذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ؛ فنقول: «ما»: اسم استفهام مبتدأ، و«ذا»: خبره؛ أي؛ ما الذي أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذي أكتبه؟

وفي هٰذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هٰذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً؛ فإن طلب استبانته لا يكون معصية؛ **فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله ـ سبحانه**

قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هٰذا؛ فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

وتعالى ـ، ومع ذٰلك قال: «**رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لٰكن الله أمره، ولا بد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هٰذا القلم الذي يعتبر جمادًا بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

و«**كل**»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

وقوله: «حتى تقوم الساعة»: الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة؛ يعني: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذٰلك عند النفخ في الصور.

قوله: «يا بني! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هٰذا»: أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

قوله: «فليس مني»: تَبرّأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريء من كل كافر.

(١) أخرجه: أبو داود في (السنة، باب في القدر، ٤/ ٧٦). وفيه حبيش بن شريح، وهو مقبول.
ومن طريق آخر أخرجه: الترمذي في (القدر، ٦/ ٣٢٥)، والطيالسي (٥٥٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٥). وفيه عبد الواحد بن سليم.
=

....

ويستفاد من هٰذا الحديث:

١ ـ ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني!».

٢ ـ أنه ينبغي أن يُلَقَّن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذٰلك أنه لم يقل: إن الله كتب... وسكت، ولٰكنه أسند إلى الرسول ﷺ؛ فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سَمّ الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذٰلك يحصل به المقصود، لٰكن إذا قلت: سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل، وقال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها»**[1]، إذا فعلت ذٰلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعوِّد ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهٰذه في الحقيقة كثيرًا ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لٰكنه لا يربط هٰذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.

* * *

= ومن طريق آخر أخرجه: ابن أبي عاصم (١٠٤) في «السنة» و«الأوائل» (٢). وفيه بقية بن الوليد ومعاوية بن سليم.
ومن طريق آخر أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم (١٠٧)، والآجري (ص١٧٧، ١٧٨). وفيه أيوب بن زياد الحمصي.
وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٣). وفيه ابن لهيعة.
والحديث صححه الألباني؛ كما في «تعليقه على المشكاة» (١/ ٣٤).

(١) أخرجه: مسلم في (الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب، ٤/ ٢٠٩٥)؛ عن أنس رضي الله عنه.

وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[(١)].

قوله: «وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب...»: هٰذه الرواية تفيد أمرًا زائدًا على ما سبق، وهو قوله: «فجرى في تلك الساعة»؛ فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى؛ فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء إلى قيام الساعة، وهٰذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

قوله: «إلى يوم القيامة»: هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ ـ ٦].

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

(١) أخرجه: الإمام أحمد (٥/٣١٧)، وابن أبي عاصم (١٠٧).
وفيه أيوب بن زياد الحمصي، لم يوثقه غير ابن حبان؛ كما في «تعجيل المنفعة» (ص٧٩).

وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: **«فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللّهُ بِالنَّارِ»**.

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* * *

قوله: «وفي رواية لابن وهب»: ظاهره أن هٰذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قوله: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»: في هٰذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه يحرق بالنار.

وقوله: «أحرقه الله بالنار»: بعد قوله: **«فمن لم يؤمن»** يدل على أن من أنكر أَوْ شَكّ فإنه يحرق بالنار؛ لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذٰلك.

وهٰذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهٰذا يلحق بالكفر، ولهٰذا قال: **«فمن لم يؤمن»**، ودخل في هٰذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: **«أحرقه الله بالنار»** دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة